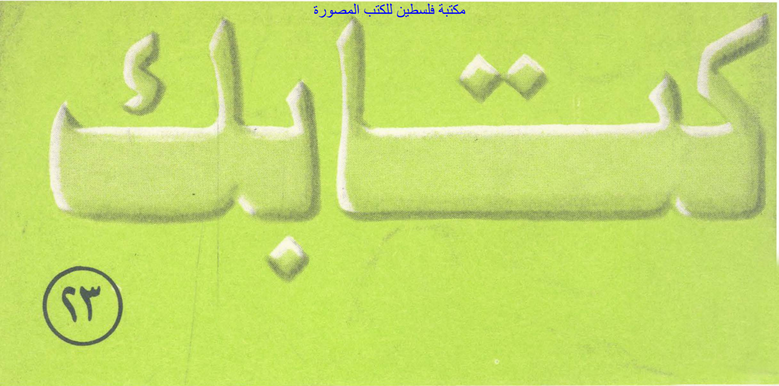


٢٣

د . أحمد محمد الحوفى

الأدب العربى وتاريخه



دار المعارف



رئيس التحرير : أنيس منصور

د . أحمد محمد الحوفي

الأدب العربي وتاريخه

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهره ج . م . ع

ما الأدب ؟

تتردد كلمة أدب على الألسنة والأقلام ، فماذا نريد بها ؟ وما تعريف الأدب ؟ نستطيع أن نعرف الأدب فى إيجاز بأنه التعبير الجيد عن الفكر أو الوجدان ، ومن هنا يختلف الأدب والعلم ، لأن العلم لا يشترط فى التعبير عنه أن يكون جيداً .

ولكن من أين جاء هذا المعنى لكلمة الأدب ؟

١ – فى العصر الجاهلى :

هيا بنا إلى العصر الجاهلى لنتتبع دلالات هذه الكلمة ، لعلنا نهتدى إلى سبب دلالتها على التعبير الجيد عن فكر أو شعور .

١ – لقد دلت كلمة الأدْب (بسكون الدال) فى العصر الجاهلى على الدعاء إلى المأدبة ، ودلت كلمة الآدب على الداعى إلى مأدبته .

ثم توسعوا فى دلالتها فاشتقوا منها الأدَب (بفتح الدال) بمعنى الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة ، لأنه يأدب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح ، وبين المعنيين صلة وثيقة ، إذ كان العرب يعيشون فى بيئة مقفرة شحيحة بالزاد ، فمدحوا بالكرم ، وافتخروا به ، فكان من الطبيعى أن ينتقلوا من معنى الأدب الحسى المادى إلى ذلك المعنى الخلقى النفسى .

ونلاحظ أن هذا المعنى الخلقى لكلمة أدب لم ينقطع فى أى عصر ، فمنه فى صدر الإسلام قول النبي ﷺ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وقول عمر بن الخطاب لابنه : « احفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » ، وقد سمى الماوردى كتاباً له (أدب الدنيا والدين) ومازلنا نستعمل الكلمة بهذا المعنى .

٢ – ولكن بعض الباحثين لم يطمئنوا إلى اشتقاق الكلمة من الأدْب (بسكون الدال) بمعنى الدعاء إلى المآدب وعرضوا آراء أخرى من الخير أن نناقشها .

(ا) من هؤلاء المستشرق الإيطالى نلينو ، فإنه يشتق كلمة الأدب (بفتح الدال وهو هذا الفن الجميل الذى نعرفه) من كلمة الدأب (بسكون الهمزة وفتحها) بمعنى العادة ، ويرى أن كلمة دأب هذه جمعت على أدآب ، ثم قلب الجمع إلى آداب ، كما جمعت بئر على آبار ، ورئم على آرام ، واشتقت كلمة أدب من الجمع وهو آداب .

وهذا افتراض فيه تكلف لانقره ، لعدة أسباب :

أولها أن كلمة آبار أو آرام لم يشتق منها مفرد تكون الصلة بينه وبين بئر ورئم كالصلة بين أدب ودأب فى الحروف وفى المعنى ، فيقال مثلا إبْر وإرْم .

وثانيها أن الأستاذ الباحث لم يذكر شبيهاً لهذا الاشتقاق فى اسم معنى قدمت عينه على فائه فى الجمع ، ثم اشتق منه فعل جديد .

وثالثها أنه لم يرد فى المعاجم اللغوية أو فى نص جمع كلمة الدأب على

أدآب ، ولكن ورد فى كتب اللغة جمع بئر على آبار وأبآر ، وجمع كلمة رئم على آرام وأرآم .

ورابعها أن كلمة الدأب لم ترد بمعنى الأدب ، لأن الدأب العادة والشأن والاستمرار حسناً أو قبيحاً ، والأدب خلق كريم .

(ب) ومنهم الدكتور طه حسين ، فقد كان فى أول الأمر يدين برأى الأستاذ نلينو ، ولكنه جعل بعد ذلك يحار فى الاهتداء إلى مصدر الكلمة ، ولا يرتضى رأياً من الآراء ، فافترض أنها من لغة قبيلة عربية قديمة ، ولكن النصوص المثبتة لمعناها الأصيل ضاعت .

وهذا رأى يعتمد على هدم البناء بمعول من الفرض والخيال لا يبنى ولا يهدم .

(جـ) ومنهم الاستاذ مصطفى جواد ، فقد ذهب إلى ان الكلمة مشتقة من الهَذَب (بفتح الهاء والذال) وقلبت الهاء همزاً كما فى هيا وأيا وهراق وأراق .

ويضعف هذا الفرض أن كلمة أدب لم تستعمل مرة على هذا الأصل لا فعلا ولا اسماً ، وأن فى الكلمة الواحدة وهى ثلاثية قلب الهاء همزاً وقلب الذال دالا .

(د) ورأى الأب أنستاس مارى الكرملى أن الأدب صنعة الأديب ، وهى واردة فى اللغة اليونانية بهذا اللفظ وبهذا المعنى ، فمن معانى الأديب

عندهم الحسن الغناء ، اللطيف المحادثة والمنادمة والمجالسة ، المثير لهوى جلسائه بأنغامه المشجية وحديثه الرائق .

لكن هذا الرأى محتاج إلى دليل ، ومفتقر إلى إثبات أن العرب أخذوه من اليونان .

(هـ) ثم ذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن كلمة أدب معناها الإنسان فى لغة السومريين الذين عمروا جنوبى العراق فى فجر التاريخ ، ومما لا شك فيه أن قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية إلى أرضهم حوالى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، فغزتهم وأخضعتهم واقتبست من لسانهم وأديانهم وعمرانهم ، فلماذا لا نظن أن الكلمة السومرية دخلت العربية بلفظها وبمعناها ، ثم تحولت إلى آدم ، واستعملت كذلك فى اللغات السامية ، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل السومرى ، لقدمها وعدم اختلاطها بغيرها ، ثم استعملت الكلمة فى الوصف استعمال المصادر ، فأرادوا بها الرجل الذى استكمل مزايا الإنسانية من حر الخلال ، وكرم الفعال ، وحسن السيرة ، كما تقول اليوم فلان آدمى وفلان إنسان ، ثم قلبها الزمن على وجوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه . ومما يساعد هذا الفرض قول التبريزى فى شرح ديوانه الحماسة : كان الأدب اسماً لما يفعله الإنسان فيتزين به فى الناس .

ولكننا مع تقديرنا لتحرز الأستاذ الزيات فى عرض هذا الفرض ندفعه بأن المراد من الكلمة إذن الرجل الكريم الأخلاق أو الممتاز

بصفات ، لا الخلق الكريم نفسه ، ولا الصفات المميزة لبعض الناس ، وليس فى اللغة العربية ما يؤيد هذا المعنى أو يشير إليه ، وكلمة التبريزى نفسه التى استشهد بها الأستاذ صريحة فى أن الأدب ميزة وحلية يتزين بها الرجل فى الناس .

ثم إن استعمال الكلمة وصفاً كما تستعمل المصادر بعيدُ الاحتمال .

٣٠ – فما النتيجة العامة التى استخلصناها من هذه الآراء ؟ .

لقد اتضح أنها على تعددها تبحث عن أمومة للكلمة فى غير جنسها ، وأمها فى اللغة العربية نفسها .

فهل لدينا ما نرجح به هذا ؟

نعم .

فمن أين جاء هذا المعنى الجديد لكلمة أدَب ؟

١ – جرى الباحثون جميعاً على أن المعنى الجديد وليد القديم ، لأن المؤدبين كانوا يتوخون من الثقافة الأدبية تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس على النبالة .

٢ – ولكنى أرجح أن المعنى الجديد جاء من الأدْب (بسكون الدال) وهو الأمر العجيب ، أو من الأدْب (بسكون الدال) وهو العَجَب والدهشة ، والصلة بين الأدَب (بفتح الدال) وبين هذين المعنيين صلة وثيقة ، لأن الأدب عجيب يثير النفوس بعباراته ومعانيه وأخيلته ، وهو أيضاً نتاج عن عَجَب من منظر أو شعور أو حادث ، ونتاج يدعو إلى

عَجَب القراء والسامعين ودهشتهم .

ويعزز هذا الترجيح أن بعض الشعر الذى يدرس ويُروى – على أنه أدب – حافل بالمجون والغزل الفاحش ، كبعض شعر طرفة وامرئ القيس والأعشى وعمر بن أبى ربيعة وأبى نواس .

وإذن فاشتقاق الأدب بمعنى هذا الفن الجميل من الأدْب بمعنى الأمر العجيب أو بمعنى العَجَب والدهشة أكثر ملاءمة للأدب ومسايرة له من اشتقاقه من الأدَب بمعنى الخلق الكريم .

أى أن الأدْب (بسكون الدال) بمعنى الدعاء إلى المآدب أصل للأدب .(بفتح الدال) بمعنى الخلق الكريم .

والأدب (بسكون الدال) بمعنى العجيب أو العجب أصل لهذا الفن الجميل الرفيع من شعر ونثر .

٢ – اتساع معنى الأدب فى العصر الأموى والعباسى :

تطورت كلمة أدب واتسعت دلالتها على مر العصور .

١ – فى العصر الأموى دلت على معنى آخر جديد هو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الشرح والأخبار والأنساب .

وهذا ضرب من الثقافة اختص بتدريسه لأبناء الخاصة وأولياء العهد طائفة من الأساتذة سموهم المؤدِّبين .

من هذا قول معاوية بن أبى سفيان : « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر

آدابكم» وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : «أدبهم برواية شعر الأعشى»

وسمى المسلمون الملمون بهذه الثقافة أدباء ، ومنه قول شاعر فى مدح الخوارج :

أدباء إما جئتهم خطباء ضمناء كل كتيبة جرار

ولكن لا يصح أن ننسى أن العصر الأموى كانت فيه ثقافة أخرى لم تشملها كلمة أدب ، هى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهذه هى الثقافة الشرعية أو الدينية .

٢ - وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى الأول أى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتا وأسمائها ، فكان النحو والصرف واللغة ، واتسع نطاق كلمة أدب فشملت الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وأخبار وأنساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد ، وألفت كتب بهذا المعنى ، مثل طبقات الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ والبيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ والكامل للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ والشعر والشعراء وعيون الأخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

لهذا نجد فى كتاب الكامل مثلا لغة وشعراً وصرفاً ونحواً وتاريخاً وبلاغة ، لأنهم فهموا الأدب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة .

على أن الأدب لم يكن ثقافة المسلمين الفريدة فى ذلك الحين ؛

فإنهم كانوا قد ارتقوا وتحضروا وأجادوا فهم دينهم ، وقوى اتصالهم بغيرهم ، فازدهرت ثقافتهم الدينية ، واتسعت دائرتها عما كانت عليه من قبل فى القرن الأول ، فتفرعت إلى القرآن الكريم وتفسيره وقراءاته ورسمه ، وإلى الحديث النبوى الشريف وعلومه ، وإلى الفقه وأصوله ، وإلى علم الكلام ومذاهبه ، كما ازدهرت ثقافتهم الدخيلة من منطق وفلسفة وطب وفلك إلخ .

لكن الأدب لم يشمل هذين الضربين من الثقافة ، فهذه فلسفية ، وتلك دينية .

على أن الدلالة الخلقية مازالت حية تدور على الالسنة والاقلام ، فإن الجاحظ مثلا فى كتابه البيان والتبيين عقد فصولا منها فصل عنوانه (كلام فى الأدب) ذكر فيه عدة حكم ووصايا مما يهذب الأخلاق ، وابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ سمى كتابين له فى الأخلاق (الأدب الكبير) و (الأدب الصغير) .

٣ – ولقد ازدادت دلالة كلمة أدب اتساعاً فى بعض فترات من العصر العباسى ، إذ دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعلمية ، فالفلسفة أدب ، والصيد والشطرنج أدب ، والسياسة وخدمة الملوك أدب ، والأديب هو المثقف المستنير اللبق ، قال الوزير الحسن بن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ : الآداب عشرة : ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة

أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن : فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس .

وجاء فى إحدى رسائل الجاحظ قوله : وجدنا الفلاسفة المتقدمين فى الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التى يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكمياء والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها .

ومن هذا يتضح أنه أدخل فى الأدب العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعية ، متأثراً بأرسطو ، فقد سمى العلوم الرياضية الأدب فى تقسيمه للعلوم المأثور عنه .

ولم يكن عجيباً أن إخوان الصفا تأثروا بهذا كله ، فأدخلوا فى معانى الأدب أحياناً السحر والكهانة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة .

ويتفق مع هذا أن عبيد الله بن طاهر المتوفى سنة ٢٨٩ هـ الذى كان

---

(١) شهر جانية : نسبة إلى الشهارجة أو الشهارج وهم أشراف الفرس . أنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس فى القرن السادس .

من ندماء الخليفة المعتضد بالله ألف كتابه (الآداب الرفيعة) متضمناً هذا كله . . .

وقد جمع القاسم إسماعيل بن أحمد الشجرى من شعراء القرن الرابع ضروب الأدب فى قوله :

إن شئت تعلم فى الآداب منزلتى
وأننى قد عدانى العز والنِّعَمُ
فالطرف والسيف والاوهاق تشهد لى
والعود والنرد والشطرنج والقلم (١)

ولهذا نجد بعض مؤلفى العربية يدرجون تحت كلمة أدب كل المعارف ، ففى كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى أن علم العربية المسمى بعلم الأدب علم يحترز به عن الخلل فى كلام العرب لفظاً أو كتابة ، وينقسم على ما صَرَّحوا به إلى اثنى عشر قسماً .

ثم أخذ يسرد هذه الأقسام ويعرف بكل منها ، وهى العلوم التى عرفت بالعلوم العربية .

ولم يكن غريباً أن ابن خلدون عرف الأدب فى المقدمة بقوله تحت عنوان علم الأدب : « هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الإجادة فى

---

(١) الطرف : الحصان . الأوهاق : الحبال القوية التى ترمى فى أنشوطة لتؤخذ بها الدابة بالحصان . وغرض الشاعر حرفة الكدية التى يتكسب بها .

المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجع متساو فى الإجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة فى أثناء ذلك متفرقة ، يستقرئ منها الناظر فى الغالب معظم قوانين العربية ، مع ذكر بعض أيام العرب ، يفهم به ما يقع فى أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة .

والمقصود بذلك كله ألا يخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم إذا تصفحه ، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه ، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه .

ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم ، والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهى القرآن والحديث ، إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب ، إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية فى أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية ، فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها » .

وحينما ندقق فى هذا التعريف يتبين لنا أن ابن خلدون خلط بين الأدب ودراسة الأدب ، لأن الإجادة فى الشعر والنثر ليست ثمرة للأدب ، بل هى ثمرة لدراسة الأدب .

ثم إن حفظ أشعار العرب وأخبارهم وأنسابهم والأخذ من كل علم بطرف ليس تعريفاً للأدب كما ذكر ابن خلدون ، وإنما هو تعريف للتأدب أى لدراسة الأدب .

أما التعريف الحقيقى للأدب فإنه الشعر العالى والنثر الجيد وما يتصل بهما من لغة ونحو وأنساب وأخبار .

ولا يصح أن يفوتنا أن إهتمام ابن خلدون بالسجع الجيد راجع إلى تأثره بالعصر الذى عاش فيه ، إذ كان النثر المسجوع فى ذلك الحين هو النثر الرفيع .

والحق أن خلط ابن خلدون بين الأدب ودراسة الأدب ، أو بين الأدب وتاريخ الأدب ، هذا الخلط هو الذى حمله على أن يقول إن الأدب لا موضوع له ، فإن موضوع الأدب بمعروف وهو الشعر والنثر ، وموضوع تاريخ الأدب أو دراسة الأدب معروف وهو تناول هذا الأدب بالتحليل والنقد والدراسة فى عصر أو عدة عصور .

ثم إنه ذكر فى تعريفه السابق أن الأدب علم ، وذكر أن الأدب فن ، وشتان ما بين العلم والفن ، ولعل عذره فى هذا أن التفرقة بين العلم والفن لم تكن قد اتضحت .

ومن التعسف أن نتطلب من ابن خلدون تفرقة لم تكن معروفة ، بل ظلت مجهولة إلى عهد قريب ، وليس أدل على هذا من قول كاتب من كتاب العصر الحديث هو الأستاذ عبد العزيز البشرى : «فى الحق أننى لم

أضيف في كل ما وقع لي من كلام المتقدمين والمتأخرين من أصحاب العربية إلى زمن قريب تخصيصاً لهذه الكلمة بذلك المعنى الذي يتناول اليوم كلمة فن Art فلم أر بدا من مراجعة معجمات اللغة العربية تحقيقاً لأحتمال الوضع اللغوى بكلمة فن ووجوه تصرفها فى مختلف المعانى بالاشتقاق والتجوز وغير ذلك من أسباب الدلالات ، وقد اعتمدت فى طلب هذه الغاية على لسان العرب لابن منظور وصحاح الجوهرى والقاموس المحيط للفيروزآبادى وأساس البلاغة للزمخشرى ، فخرج لى من كل أولئك ما أنا مورده عليك فى إيجاز ، ولكن فيه الغناء : الفن : واحد الفنون وهى الأنواع والفن : الحال ، والفن : الضرب من الشيء ، والجمع أفنان وفنون ، والرجل يُفَنِّن الكلام ، أى يشتق فى فن بعد فن ، وافتن أخذ فى فنون من القول » .

٣ – فى العصر الحديث :

وهذا لا ينفى أن كلمة أدب عادت إلى الضيق ، فاقتصرت على علوم العربية وحدها ، ثم اقتصرت على الجيد من الشعر ومن النثر ، كما كانت دلالتها فى العصر الأموى ، وهذا المعنى هو الذى نعرفه الآن .

موضوعات الأدب

لعلك تتذكر أننا قد اتفقنا من قبل على أن الأدب هو التعبير الجميل عن الفكر أو الوجدان .

وهذا التعبير شعر تارة ، ونثر تارة .

ولكل من الشعر والنثر موضوعاته .

١ – فالشعر يتناول الوصف والغزل والمدح والرثاء والهجاء والحكمة والفخر .

ويتناول فى العصر الحديث القصة والمسرحية والوطنية والتحريض على مناضلة الاستعمار وعلى وحدة الأمة العربية ، والتنبيه إلى عظمة الماضى والحض على اليقظة والجهاد ، وكثيراً من القضايا الاجتماعية كتعليم الفتاة وعملها والسفور والحجاب إلخ . .

أما الكتابة فتتناول الرسائل والقصص والمقامات ومحاربة الاستعمار والدعوة إلى الشورى وإلى الإصلاح الاجتماعى .

وأما الخطابة فتتناول الخطابة السياسية والدينية والحربية والحفلية والاجتماعية . ونلاحظ أن العرب لم يعرفوا الخطابة القضائية إلا فى العصر الحديث بعد اتصالهم بالغرب ونقلهم نظام التقاضى عن محاكم الغرب ، لأن القاعدة التى كان يجرى عليها القضاء الإسلامى أن البينة على من

ادعى واليمين على من أنكر ، فلا حاجة إلى خطابة .

٢ – ولقد اتصل بالأدب منذ العصر الجاهلى اتصالا وثيقاً جدًّا تذوق هذا الأدب ونقده ، ثم تميز هذا النقد وتنوع فى العصر العباسى .

وعرف عن كثير من الشعراء القدماء حرصهم على سلامة شعرهم من العيوب والمآخذ ، ليسلم من نقد الناقدين ، حتى قالوا إن بعضهم كان يحبس القصيدة عنده زمنا طويلا ليهذبها ، ثم يعرضها على الناس .

ولكن على أى شيء كان يعتمد النقاد القدامى ؟

كانوا يعتمدون فى العصر الجاهلى على الفطرة والذوق ، ولهذا لم يعقبوا على استحسانهم أو على استهجانهم بتوضيح لأسباب هذا أو ذاك .

وبعد حين بدءوا يوضحون السبب فى إيجاز ، فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : أنشدونى لأشعر شعرائكم ، قيل : من هو؟ قال عمر : هو زهير ، قيل : وبم صار كذلك؟ قال عمر : لأنه كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه [١] .

فإن عمر بهذا التعليل بين سبب إعجابه بشعر زهير .

ثم لم يلبث النقد أن ارتقى فى آخر القرن الهجرى الأول ، إذ كثر الشعراء فى أقطار شتى ، وتعددت مذاهب القول ، وثارت خصومات سياسية وغير سياسية بين كثير من الشعراء وبخاصة شعراء الأحزاب ،

---

(١) يعاظل بين الكلام : يدمج بعضه فى بعض إدماجا يدعو إلى اللبس والغموض .

فكثرت الموازنات ، وتعددت الدراسات وتصدى للنقد علماء فى النحو وعلماء فى اللغة ، ولم يقف نقدهم عند المظاهر الخارجية للشعر ، بل تعدت إلى تذوقه وفهمه وبيان خصائصه والمفاضلة بين شاعر وشاعر ، ووضع الشاعر فى المرتبة التى يستحقها ، وزادوا على هذا أنهم عرضوا لآثار البيئات فى الشاعر وشعره ، وأنهم وثقوا الشعر ، فأثبتوا الصحيح ، واستبعدوا الزائف المنحول .

وبعد هذا اتسع مجال النقد ، وعظمت مكانته ، وكثر ممارسوه ، واتضحت فيه تيارات جديدة ، وثارت فيه خصومات بين أنصار الجديد وأنصار القديم ، وظهرت كتب كثيرة تتناول هذا وأمثاله ، مثل طبقات الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ والبديع لابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ونقد الشعر لقدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ والموازنة بين الطائيين للآمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ والوساطة بين المتنبى وخصومه لعبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ والعمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وامتاز هذا النقد بحرية الناقد فيما يعرض له ، فهو حيناً ينظر فى شعور الشاعر ليرى أكان صادقاً فى تعبيره عن شعور صادق ، أم كان كاذباً مصطنعاً لهذا الشعور ؟

وحينا يقف عند الأسلوب الذى قرض به الشاعر قصيدته أو الكاتب مقالته ، ليتبين سلامة الأسلوب أو عيبه ، وقوته أو ضعفه ، ووضوحه أو

غموضه ، وجماله المطبوع أو المتكلف ، وإطنابه أو إيجازه أو مساواته .

وتارة ينظر النقد فى المعنى أصواب هو أم خطأ ؟ أصادق هو أم كاذب ؟ أمبتكر أم مقلد ؟

ومرة يحتفل النقد بالخيال ، ليرى ما فيه من جمال أو قبح ، ومن تجديد أو تقليد ، ومن علاقة بالبيئة التى عاش فيها الشاعر .

وأحياناً يهتم النقد بأفانين الشاعر أو الكاتب ، ليكشف عن تفوقه فى بعضها وعن تخلفه فى بعضها ، وليوضح تجديده إذا كان قد جدد .

ولا يستغنى النقد عن الموازنة بين الشعراء وبين الكتاب فى عصر واحد أو فى عصور مختلفة .

كما لا يستغنى عن دراسة المؤثرات العامة والخاصة فى حياة الشاعر والكاتب وفى إنتاجه .

وهكذا لا ينفصل الأدب عن تاريخ الأدب ، ولا ينفصل الأدب عن النقد الأدبى .

تاريخ الأدب

إذا تذكرنا أن لكل شيء فى هذا الوجود تاريخاً ، فإننا لا ندهش أن يكون للأدب تاريخ .

فهل للأدب تاريخ ؟

نعم فإن الأدب كائن حى قديم متطاول العمر ، فلابد أن نؤرخ له ، ولابد أن نعرض لأحواله من قوة أو ضعف ، وأن نحيط خبْرا بالمؤثرات العامة فى حياته من بيئة طبيعية واجتماعية وثقافية ، ومن حرية أو عبودية ، ومن ثقافة أو جهالة ، ومن حرب أو سلم إلخ لنعرف الينابيع الأولى التى استقت منها النفوس والعقول . ولابد أن ندرس الحركة الفكرية فى كل عصر ، وتأثيرها فى الأدب ، وتأثر أديب بغيره ، وتأثيره فى غيره ، ونعرف خصائص كل أديب وخصائص الأدب فى كل عصر وفى كل إقليم إلخ .

ومن هذا يتبين أن مؤرخ الأدب لابد أن يلم بتاريخ العلوم والفنون ، ولابد أن يدرس الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية للعصر الذى يدرسه دراسة تمكنه من فهم الأدب وظروفه ، ومن المعرفة بالأديب وإنتاجه .

على أن مؤرخ الأدب يجب أن يكون مع هذا كله أديباً ذا ذوق ،

ليتعاون ذوقه وثقافته ، فليس تاريخ الأدب علماً صرفاً ، وإنما هو مزيج من العلم ومن الذوق .

وكيف نريد ممن حرم نعمة الذوق الأدبي أن يؤرخ هذا الذوق ؟

ولو أن مؤرخ الأدب اقتصر على ذوقه وحده دون أن تؤازره الثقافة العامة لضلّ .

قال رجل لخلف الأحمر : إذا استحسنتُ أنا الشعرَ فما أُبالى ما تقول فيه أنت وأصحابُك . فقال له خلف : أرأيتَ إذا استحسنت أنت درهماً ثم قال لك الصيرفى إنه ردیء أفكان ينفعك استحسانك له ؟

وقد نتساءل ما قيمة تاريخ الأدب ؟ وما أثره ؟ وسرعان ما يوافينا الجواب بأن هذا التاريخ يبصرنا بحياة الأدب والحركة العلمية والفكرية وما أثر فيها فرقاها أو هبط بها .

ثم هو يبصرنا بآثار الأدباء والعلماء والعوامل المؤثرة فى أدبهم وفى علمهم لنسترشد بذلك فى فهم إنتاجهم ، وَنوفر الجهد الذى كان كل منا مضطرًّا أن يبذله لو انفرد بالبحث والدرس ، وهيهات أن يتسع له وقته أو تمكنه وسائله . على أن هذا التاريخ يبعث فينا الشوق إلى مواضلة الدراسة ، ويهدينا إلى طرق البحث القويمة المجدية .

ثم إنه من حق الأدب علينا أن ندرسه ، لأنه ميزة تميز بها الإنسان ، ولأنه لغة الروح ، وترجمان القلب ، وجلاء النفس ، وهو إلى ذلك كله وسيلة بلاغ الرسل إلى العباد ، والإيقاظ الذى يتقدم ثورات الأمم على

عسف طال ، والنور الذى يوقظ من خمود استطال ، فتنفلت الشعوب من قيودها ، وتنطلق من خمودها ، وتسرع على أنغام الأدباء إلى أعلى مُثُلها .

والحق أن تاريخ الأدب بهذا المعنى علم حديث النشأة ، يرجع الفضل فى ابتكاره إلى الإيطاليين فى القرن الثامن عشر ، ثم سرى من بلادهم إلى بلدان غربية أخرى ، فلما كثرت بعثات مصر إلى أوربا واشتد اختلاط مصر بالغرب كان أول من نقل علم تاريخ الأدب إلى مصر الأستاذ حسن توفيق العدل بعد دراسته فى ألمانيا وقيامه بتدريس تاريخ الأدب فى دار العلوم بالقاهرة .

أما العرب فإنهم قد برعوا فى تأليف كتب التراجم للأدباء والعلماء ، وافتنوا فى هذا افتناناً يدعو إلى التقدير والثناء ، فمن مؤلفاتهم فى هذا المضمار وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبى ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، وتاريخ الحكماء للقفطى ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، وخريدة القصر للكاتب الأصفهانى ، ودمية القصر للباخرزى ، ونفح الطيب للمقرى ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان .

عصور تاريخ الأدب

اعتاد مؤرخو الأدب أن يقسموا حياته إلى عصور ، تسهيلاً للدراسة ، ومراعاة لموضوعات الأدب والمؤثرات فيه وحالته من جودة ورداءة ، ومن تجديد أو تقليد إلخ .

وهذه العصور هي :

١ – العصر الجاهلي ، وهو يبدأ قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهي بظهور الإسلام .

٢ – عصر صدر الإسلام ، وهو يبدأ بظهور الإسلام ، وينتهي بانقضاء الخلافة وظهور بني أمية سنة ٤١ هـ .

٣ – العصر الأموي من ولاية معاوية بن ابي سفيان سنة ٤١ هـ إلى قيام الدولة العباسية سنة ١٣١ هـ .

٤ – العصر العباسي ، وهو يبدأ بقيام دولة بني العباس سنة ١٣٢ هـ وينتهي بهجوم المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وينقسم إلى عصرين :

الأول من قيام الدولة العباسية إلى قيام دولة بني بويه سنة ٣٣٤ هـ

والآخر من قيام دولة بني بويه وانقسام المملكة الإسلامية إلى ممالك وإمارات إلى أن هجم المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وقد حكمت في هذا العصر الدويلات الآتية : السامانية في خراسان وتركستان ، والبويهية

فى فارس والعراق ، والزيارية فى طبرستان ، والغزنوية فى أفغانستان ، والحمدانية فى حلب والموصل ، والأموية فى الأندلس ، والإخشيدية والفاطمية فى مصر ، والسلجوقية بالشام والعراق ، وكردستان ، ثم العثمانيون فى العراق والشام ومصر وجزيرة العرب وشمالى أفريقية إلى مطلع العصر الحديث .

٥ – عصر النهضة الحديثة فى بلدان العالم العربى فى مصر وسورية ولبنان والعراق والبلاد العربية كلها .

وهو يبدأ فى مصر من قيام دولة محمد على إلى وقتنا هذا .

ويلزم أن نتنبه هنا إلى أن تقسيم تاريخ الأدب إلى عصور سياسية فيه كثير من التجوز ، لأن الأدب ليس شارة يسهل على الناس تغييرها بقيام دولة وسقوط دولة ، أو بظهور نظام واختفاء نظام ، بل هو ثمار للنفوس ، ونتاج للعواطف والعقول ، فمن الضرورى أن تمر عليها حقبة من الزمن ، لتنسلخ من ماضيها أو لينسلخ عنها ماضيها ، ولتلبس ثوب حاضرها ، وتتشكل لمستقبلها ، وكثيراً ما يأبى الماضى أن ينسلخ كله ، فتبقى منه آثار ورواسب ومظاهر ، تبدو فى إنتاج الأدباء عن قصد وعن غير قصد .

فدراسة الأدب السياسى مثلا فى عصر بنى أمية لا تعنى أنه ظهر على حين غرة منذ تولى معاوية أمر الأمة ، ولا تعنى أنه غرب فجأة حينما تولى بنو العباس . وإنما تعنى أن أدب السياسة شعراً ونثراً استكمل مقوماته فى عصر بنى أمية إذ قامت الأحزاب السياسية الخالصة ، وظهرت الفرق

الدينية التى ساهمت فى السياسة بقدر ، وكان الصراع الحزبى فى هذه الحقبة أشد عنفاً ، وأطول مدى ، وأبرز فى الأدب مظهراً من الصراع الشبيه بالحزبى فى آخر صدر الإسلام ، ومن الصراع الحزبى فى عصر بنى العباس .

كذلك كان شعراء العصر الجاهلى يبكون أحياناً أطلال حبيباتهم ، لأن الأماكن التى كانت تقيم بها الحبيبات قد صارت بعد رحيلهن عنها مقفرة خربة ، فإذا مر الشاعر بها وقف أمامها يتذكر ماضيه السعيد ، ويندب حاضره ، ويتحدث عن بعض ما يشغله ، وأحياناً ينتهز الفرصة فيصف محبوبته .

وقد أعجب شعراء العصور المتوالية بهذا الضرب من المقال ، فجعلوا يبكون الأطلال إلى العصر الحديث ، وبعضهم من مدن متحضرة فى الشام ومصر والأندلس ، ومعنى هذا أن بكاء الأطلال لم ينقطع فى عصر من العصور ، مع أنه وليد العصر الجاهلى والبيئة البدوية .

موضوعات تاريخ الأدب

نعود إلى عصور الأدب التي تعارف عليها الدارسون لتسهيل الدراسة ، ونعود إلى موضوعات الأدب نفسه ، لنعرف الميدان الذى يجول فيه تاريخ الأدب .

ولقد يكون من الملائم أن نحدد هذا الميدان تحديداً مبدئيًّا ، فنقول إن تاريخ الأدب يتناول هذه الأمور :

١ – دراسة الأدب نفسه شعراً وكتابة وخطابة .

٢ – دراسة الأدباء أنفسهم شعراء وكتابا وخطباء .

٣ – التعريف بأهم الإنتاج الأدبى فى كل عصر .

٤ – تجلية الحياة الثقافية وبخاصة ما يتصل باللغة والأدب من قريب . مثل القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والفقه والفلسفة وعلوم البلاغة .

فإذا ما أردنا بعض التفصيل قلنا :

١ – فى العصر الجاهلى يعرض تاريخ الأدب لنشأة اللغة العربية ولهجات القبائل ، واختلافها ، وأطوار تهذيب اللغة ، وأثر الأسواق التجارية والاجتماعات الأدبية وموسم الحج فى تقارب هذه اللهجات .

ثم يعرض للشعر الجاهلى وأوليته وأنواعه من غزل وفخر ووصف ومدح

وهجاء وفخر ورثاء وحكمة ، ويوثق هذا الشعر ، ويناقش دعوى أنه منحول كله ، ويثبت أصالة أكثره ، ويقتبس من هذا الشعر ، صور الحياة العربية المتعددة ، ويبين خصائصه الأسلوبية والمعنوية والخيالية ، ويوضح تأثره بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، وتأثيره فى العرب ، ويعرض لمكانة الشعراء فى المجتمع العربى عند الملوك والأمراء ، وزعماء القبائل وعند الشعب ، ويترجم لبعض هؤلاء الشعراء مثل امرئ القيس وطرفة وزهير ولبيد وعنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وأمية بن أبى الصلت .

ثم يبين السبب فى خلو الشعر الجاهلي من القصص ومن الملاحم ، ويعرض للقصائد السبع أو العشر المشهورة التى أطلق عليها بعض القدماء كلمة المعلقات ، ويناقش دعوى التعليق هذه .

ثم يعرض للنثر فى العصر الجاهلى ولعوامل الشك فيه ، فيعرض للخطابة فى العصر الجاهلى ، ويبين مكانتها وموضوعاتها ، وخصائصها الفنية ، وعادات العرب فيها .

ويدرس بعض الخطباء مثل قس بن ساعدة الإيادى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى .

ويعرض للأمثال العربية وبقاء كثير منها بنصه الذى قيل به إلى اليوم ، كما يعرض للحكم وللوصايا .

٢ – وفى صدر الإسلام يتناول تاريخ الأدب تَبيينَ الآثار العظيمة

للإسلام فى نفوس العرب وفى لغتهم وفى أدبهم ، ويعرض للقرآن الكريم وبلاغته وإعجازه ، وللحديث النبوى الشريف وبلاغته وأثرهما فى تغيير العقلية العربية .

ثم يتناول الشعر وموضوعاته ، ويهتم بما جدّ فى الإسلام كالدعوة إلى الجهاد وإلى تقوى الله ، وبما أبطله الإسلام كالغزل الفاحش ، ويترجم لبعض الشعراء مثل الحطيئة وأبى ذؤيب الهذلى ومعن بن أوس والنابغة الجعدى والخنساء وحسان بن ثابت .

ويعرض للنثر ممثلا فى الخطابة الدينية والحربية وفى الرسائل التى كان النبى عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون يرسلونها إلى ولاتهم وغيرهم ، ويترجم لبعض الخطباء مثل الإمام على بن أبى طالب .

٣ – وفى العصر الأموى يوضح تاريخ فنون الشعر فيه من غزل ومدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف وحكمة وسياسة وعصبية ، ويعنى بالحديث عن الغزل العذرى وكثرته .

كما يعنى بالحديث عن الغناء وأثره فى الشعر ، وبالحديث عن كثرة الرجز ، وعن نشأة الرواية والرواة وكثرتهم .

ويترجم لبعض الشعراء مثل الفرزدق وجرير والأخطل وعمر ابن أبى ربيعة وجميل بثينة والكميت بن زيد وكثير عزة .

ويعرض للخطابة بأنواعها ، ويترجم لبعض الخطباء مثل الحجاج وزياد وقطرى وأبى حمزة الخارجى وعبد الملك بن مروان .

ويدرس الكتابة الديوانية والإخوانية ، كما يعرض للكتابة العلمية ولبدء التدوين فى علوم شتى مثل التفسير والحديث والفقه والنحو والتاريخ ، ويبين ماجدَّ فى الكتابة الديوانية والإخوانية ، ويترجم لأشهر الكتاب فى العصر الأموى وهو عبد الحميد بن يحيى.

٤ – وفى العصر العباسي بقسميه يدرس تاريخ الأدب الحياة السياسية فى هذا العصر الطويل الذى ينقسم فى الحقيقة إلى أربعة عصور ، لكل عصر منها طابعه وآثاره فى حياة اللغة والأدب والثقافة والعلوم .

كما يدرس ما طرأ على العرب وعلى اللغة العربية من آثار اختلاطها بالأعاجم وبخاصة الفرس ، ويعرض لانتشار اللغة العامية واختلافها باختلاف الأقاليم ، ويتناول العقلية العربية وتطورها وتأثير البيئات الجديدة من طبيعية وثقافية واجتماعية فيها .

ويتناول الشعر مبينا أغراضه المتعددة من مدح وهجاء ورثاء ووصف وغزل وسياسة وحكمة وشعوبية ونَظْم للعلوم والفنون ومجون وخمريات وزهد ، ومبيناً خصائصه فى معانيه وأخيلته وأساليبه وآثار العلوم والفلسفة والمنطق فيه .

ويترجم لبعض الشعراء مثل عبد الله بن المعتز والبحترى وأبى تمام وأبى نواس وأبى العتاهية وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء المعرى وأبى فراس الحمدانى ومهيار الديلمى

ويعرض للكتابة ممثلة فى الكتابة الديوانية وفى التوقيعات والرسائل

الفنية والقصص والمقامات وفى لغة التأليف والتصنيف ، ويبين حياتها وأسباب رقيها فى فترة وضعفها فى فترة ، وخصائصها من حيث أساليبها ومميزاتها وأسباب رقيها أو ضعفها ، ويترجم لبعض الكتاب مثل عبد الله ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والحريرى وأبى حيان التوحيدى وبديع الزمان الهمذانى ، وإذ كانت القصص قد ازدهرت فى ذلك العصر يعنى تاريخ الأدب بنشأتها وأنواعها ويوازن بينها وبين القصة فى العصر الحديث .

كذلك يعنى بالمقامات ، فيعرض لنشأتها ويعرف بها ، ويحلل مقامات بديع الزمان الهمذانى ومقامات الحريرى .

ويعرض للخطابة فى ذلك العصر ، فيبين أنها كانت فى أول العصر العباسى قوية مزدهرة ثم جعلت تضعف حتى اقتصرت على خطب الجمعة والعيدين ، ويوضح خصائصها فى فترة ازدهارها ، ويبين صفاتها فى فترات ضعفها ، ويترجم لبعض الخطباء مثل داود بن على والمنصور والمأمون وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكى .

٥ — فإذا ما انتقل تاريخ الأدب إلى الأندلس يعنى بوصف البلاد وبيان حالة الثقافة والفنون ، ثم بدراسة الشعر وأسباب رقيه ، ويعرض موضوعاته القديمة وفنونه الجديدة وبخاصة الموشحات وخصائصها العروضية ، ويترجم لبعض الشعراء مثل ابن هانئ وابن خفاجة ولسان الدين بن الخطيب وابن رشيق وابن شرف القيروانى وأبى إسحاق الحصرى

وابن زيدون وابن دراج القسطلى وابن شهيد .

ويعنى كذلك بالنثر وأنواعه وخصائصه فى أساليبه ومعانيه وأخيلته ، ويترجم لبعض الكتاب ، مثل ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب وابن عبد ربه وابن حزم وابن شهيد .

كما يعنى بالخطابة وأسباب قوتها فى بلاد الأندلس أول الأمر ، ويبين موضوعاتها ، ومميزاتها ، ولماذا كان أكثر من اشتهروا بها من الفقهاء لا من الأدباء ، مثل منذر بن سعيد البلوطى ، ثم يوضح ضعفها بعد ذلك .

ويتصل بتاريخ الأدب فى الأندلس تاريخ الأدب فى بلاد المغرب ، فيدرس مؤرخ الأدب ملامح الشعر المغربى وعوامل رقيه ، ويعرض لبعض الشعراء هنالك مثل ابن زنباع وابن جبوس ، ويدرس الكتابة ومميزاتها وبعض رجالها مثل القاضى عياض وعبد الواحد المراكشى ، ويدرس الخطابة وصفاتها وبعض الخطباء مثل المهدى بن تومرت .

٦ – ويتناول تاريخ الأدب فى العصر الحديث حالة الأدب والثقافة فى الشرق العربى وبخاصة فى مصر قبيل عصر النهضة مبيناً تخلف الثقافة وضعف اللغة وذبول الشعر والكتابة والخطابة والتأليف .

ثم يعرض للنهضة الحديثة فى بلدان العالم العربى ، فى مصر ولبنان وسورية والعراق والبلاد العربية الأخرى ، ويعنى بصفة خاصة بنهضة مصر منذ الحملة الفرنسية على مصر ومنذ حكم محمد على وإيفاده البعوث

إلى أوربا ، والعوامل التى ساعدت على هذه النهضة من ظهور المطابع الأميرية والصحف العربية ، وكثرة المدارس ، وانتشار التعليم إلخ .

كما يعرض مؤرخ الأدب لحياة الشعر ولموضوعاته والتقليد فيه والتجديد ، مبتدئاً بطائفة من الشعراء القدماء مثل الشيخ حسن العطار والسيد درويش ورفاعة الطهطاوى وعلى الليثى وعبد الله نديم ومحمد عثمان جلال ، ومنتهياً بطائفة أخرى مثل البارودى وشوقى وحافظ وعباس العقاد ومصطفى صادق الرافعى وعلى الجارم ومحمد عبد المطلب وأحمد محرم وإسماعيل صبرى وأحمد زكى أبو شادى .

فاذا ما تجاوزنا شعراء مصر كان أمامنا فى العراق معروف الرصافى والكاظمى وجميل صدقى الزهاوى وعلى الشرقى وأم نزار الملائكة وغيرهم .

وكان أمامنا فى سورية ولبنان والمهجر بشارة الخورى وعمر أبو ريشة وإيليا أبو ماضى وجبران خليل جبران .

وكان أمامنا فى تونس أبو القاسم الشابى .

وطالعنا من الجزائر مفدى زكريا .

وظهر لنا فى المغرب عبد الكريم بن ثابت ومحمد بن إبراهيم .

وتوافد علينا من السعودية الشيخ محمد عبد الله بن عثيمين ومحمد الفهد العيسى وعبد الله بن إدريس والأمير عبد الله الفيصل ومحمد حسن فقى .

وظهر لنا فى الكويت عبد الله بن سنان .

وهذا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، فإن شعراء العصر الحديث كثيرون جداً من رجال ونساء .

والدارس لتاريخ الأدب يعنى عناية شديدة بما جدد الشعراء فى موضوعاتهم ، وفى نظام قصائدهم ، كالوطنية فى شعر شوقى ومحرم وحافظ ، ومثل المسرحية فى شعر شوقى وعزيز أباظة ومحمود غنيم ، ومثل الدعوة إلى الجهاد ومناضلة الاحتلال الإنجليزى والفرنسى والإيطالى فى شعر كثير منهم ، ومثل الدعوة إلى وحدة العرب فى شعر كثير من أبناء الأمة العربية ، ثم يترجم تاريخ الأدب لبعض هؤلاء .

هذا فى الشعر ، فإذا ما انتقل إلى النثر تناول الكتابة قبيل العصر الحديث مبيناً ضعفها ، ثم عرض للكتابة فى العصر الحديث مبيناً رقيها وأسباب الرقى ، ومبيناً أنواعها من أدبية خالصة وقصصية وسياسية واجتماعية ، ومعرفاً ببعض رجالها مثل محمد عبده وقاسم أمين وعلى يوسف وإبراهيم المويلحى ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى وأحمد حسن الزيات وطه حسين وعباس العقاد .

أما الخطابة فإنه يعرض لأنواعها من سياسية وقضائية واجتماعية ، ويبين عوامل نهضتنا ، ومميزاتها فى أساليبها ومعانيها ، ويترجم لبعض الخطباء مثل عبد الله نديم ومصطفى كامل وسعد زغلول .

على أن تاريخ الأدب فى العصر الحديث يقتضى عدة دراسات

أخرى ، مثل :

١ – الترجمة من اللغات الغربية ومتى بدأت ، وأثر البعثات فى ازدهارها ، وآثار الترجمة فى الآداب والعلوم .

٢ – المستشرقين وآثارهم فى العلم وفى الأدب ، وإنصاف بعضهم ، وتجنى بعضهم على العرب وعلى الثقافة العربية والفكر الإسلامي ، وتصدي كثير من علماء الأمة العربية للرد عليهم وإفحامهم .

٣ – الصحافة والمقالة ، وأنواع المقالات ، ودعائم المقالة الجيدة .

٤ – القصة والأقصوصة والمسرحية .

٥ – المذاهب الأدبية ونشأتها وأنواعها مثل الكلاسيكية (التقليدية) والرومانتيكية (الإبداعية) والواقعية والرمزية .

لمحة إلى مناهج مؤرخي الأدب

منذ العصور القديمة إلى اليوم اتجه مؤرخو الأدب العربى اتجاهات شتى :

١ – فمنهم من درس الأدب فى جميع عصوره فى كتاب واحد جامع ، كما فعل جرجى زيدان فى كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) ومصطفى صادق الرافعى فى كتابه (تاريخ آداب العرب) والسباعى بيومى فى كتابه (تاريخ الأدب العربى) وأحمد حسن الزيات فى كتابه (تاريخ الأدب العربى) .

٢ – ومنهم من درس الأدب فى عصر واحد من عصوره الأدبية دراسة مستقلة فى كتاب واحد ، مثل الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) ومثل محمد هاشم عطية فى كتابه (الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى) ومثل الدكتور أحمد أحمد بدوى فى كتابه (الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية) ومثل أحمد الإسكندرى فى كتابه (تاريخ اللغة والأدب فى العصر العباسى) ومثل عمر الدسوقى فى كتابه (فى الأدب الحديث) .

٣ – وبعضهم درس عدداً من الأدباء فى كتاب واحد ، كما نجد فى (طبقات الشعراء) لابن سلام وفى (الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى ،

وفى (معجم الشعراء) للمرزبانى ، وفى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة وفى (المؤتلف والمختلف) للآمدى ، وفى (دراسة الشعراء) للمرصفى ، وفى (شعراء اليهود العرب) لمراد فرج ، وفى (أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية) للدكتور جورج صيدح وفى (حديث الأربعاء) للدكتور طه حسين .

٤ – ومنهم من درس أديباً واحداً فى كتاب واحد ، كما نجد فى (الصبح المنبى عن حيثية المتنبى) للبديعى ، وفى (عبث الوليد) للمعرى ، وفى (أخبار أبى تمام) للصولى ، وفى (مع المتنبى) للدكتور طه حسين ، وفى (جميل بثينة) لعباس العقاد ، وفى (شاعر بنى حمدان) للدكتور أحمد أحمد بدوى ، وفى (الصاحب بن عباد) لخليل مردم ، وفى (أبو نواس) لعبد الرحمن صدقى ، وفى (جبران خليل جبران) لميخائيل نعيمة ، وفى (حياة الرافعى) لمحمد سعيد العريان ، وفى (أبو حيان التوحيدى) للدكتور أحمد محمد الحوفى .

٥ – وبعضهم درسوا موضوعاً واحداً فى أدب طائفة من الأدباء كما نجد فى هذه الكتب : الغزل فى العصر الجاهلى ، والمرأة فى الشعر الجاهلى ، والحياة العربية من الشعر الجاهلى ، وأغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى ، والقومية العربية فى الشعر الحديث للدكتور أحمد محمد الحوفى وفى (الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية) و (المقامة) للدكتور شوقى ضيف ، و (تاريخ الشعر السياسى) لأحمد الشايب و (الأمثال فى النثر

العربى القديم) للدكتور عبد المجيد عابدين ، و (تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى) لأنيس المقدسى و (النثر الفنى فى القرن الرابع) للدكتور زكى مبارك .

٦ – واتجه بعضهم إلى دراسة موضوع واحد من إنتاج أديب واحد ، مثل (فلسفة المتنبى) للدكتور محمد مهدى علام ، و (وطنية شوقى) للدكتور أحمد محمد الحوفى ، و (المرأة فى حياة العقاد) للدكتور عبد الحى دياب .

٧ – وبعضهم وازن بين أديبين أو أكثر ، كما نجد فى (الموازنة بين الطائيين) للآمدى وفى (بين شاعرين مجددين) للدكتور عبد المجيد عابدين .

وهكذا تتعدد فنون الأدب شعراً ونثراً ، وتتنوع ألوان تاريخ الأدب مراعاة للموضوعات المدروسة ؟

ثلاثة نماذج تطبيقية

هيا بنا بعد هذا التطواف ندقق النظر فى ثلاثة نماذج من الدراسات التى ينهض بها تاريخ الأدب ، لتكون تطبيقاً عمليًّا يحقق ما قد سلف .

النموذج الأول

دراسة عصر

أما النموذج الأول فهو دراسة عصر ، وهذا العصر هو (الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل) .

قدم المؤلف لهذه الدراسة بمقدمة بين فيها بواعثه إلى دراسة الأدب الأندلسي ، ورغبته فى تفصيل ما أوجزه بعض الدارسين ، وفى تصحيح ماظنه بعضهم أن الأدب الأندلسى امتداد للأدب العباسى .

ثم ذكر فى التمهيد اشتقاق كلمة أندلس ، ولمحة جغرافية عن إسبانيا ، ولمحة إليها قبل الفتح الإسلامى ، ثم كلمة عن المسلمين هنالك ، وعن المجتمع الأندلسى وعناصره وأصله ودياناته ولغاته وشخصيته .

وبعد هذا جاء الفصل الأول وموضوعه :(فترة الولاة ، وما فيها من منازعات وحروب ، وبوادر للثقافة الإسلامية ، وبذور للأدب العربى من شعر ونثر) ، وتعرض للخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد ، ولثلاثة أبيات من الشعر منسوبة إليه ، وشك فى الخطبة وفى الشعر .

ثم جاء الفصل الثانى وموضوعه (فترة تأسيس الإمارة العربية ، وما اتسمت به هذه الفترة من محاولة الاستقرار السياسى ، ومن بدء تكون مجتمع أندلسى متمازج ، ومن بوادر انتشار الثقافة والأدب) .

وهنا درس المؤلف الشعر ممثلا فى الاتجاه المحافظ ، وبين عوامل المحافظة ، والسمات الخاصة التى اتسم بها هذا الشعر ، ودرس بعض الشعراء دراسة موجزة ، وهم عبد الرحمن الداخل ، وأبو المحشى ، والحكم بن هشام ، وعباس بن ناصح ، وحسانة التميمية ، ثم درس النثر الخالص والنثر التأليفى .

وبعد هذا جاء الفصل الثالث خاصًّا بفترة (صراع الإمارة) فوضح الأحداث وبين تحرر المجتمع وتحضره ، وتكلم عن زرياب المغنّى ، وعن وثبة الثقافة ووثبة الأدب ، واختص الشعر بالتفصيل ، فتعرض للتجديد وبواعثه ، وعرض للاتجاه القديم ، وانتقل إلى الموشحات ، وبناء الموشحة ، ونشأة الموشحات ، ومخترعها وأساسهاوتطورها ، وعرف بشاعرين هما يحيى الغزال ، وسعيد بن جودى ، ثم تكلم عن النثر وماناله من بعض التقدم والتطور .

وأما الفصل الرابع فموضوعه (فترة الخلافة) وبيان إنهاء العصر الذهبى للحكم العربى فى الأندلس ، وتعرض للثراء والرفاهية ونهضة الثقافة والأدب ، وتكلم عن الشعر وظهور الاتجاه المحافظ الجديد ، وتطور الاتجاهات الأخرى ، وتسرب بعض الأفكار العلمية إلى الشعر ، والازدواج اللغوى ، واختص بالتعريف شاعرين هما ابن عبد ربه ، وابن هانئ .

ثم تكلم عن النثر الخالص والنثر التأليفى .

وأما الفصل الخامس فهو خاص (بفترة الحجابة) وهى فترة الحكم الاستبدادى والتحلل الاجتماعى وتقييد الثقافة وجمود الأدب ، وكانت موضوعات الشعر فى هذه الفترة المجون والمدح والوصف والنقد السياسى والاستعطاف ، وكان من أشهر الشعراء الرمادى والقسطلى ، وفى هذه الفترة تمثل النثر فى محاكاته طريقة ابن العميد .

وأما الفصل السادس فهو خاص (بفترة الفتنة) وفيها كانت السياسة مضطربة متقلبة ، وكان المجتمع يعانى الضياع ، وكانت الثقافة ترتقى حيناً وتهبط حيناً ، وتمثل العلم فى ابن حزم ، وابن حيان ، وتمثل الشعر فى أبى عامر بن شُهَيْد .

كما تمثل النثر الخالص فى رسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيْد ، وانتهز المؤلف هذه الفرصة فوازن بين هذه الرسالة ورسالة الغفران للمعرى ، ثم تكلم عن أسلوب رسالة التوابع والزوابع ، وبعد هذا تكلم عن النثر التأليفى ، وعن طوق الحمامة لابن حزم .

النموذج الثانى

دراسة أديب

وأما النموذج الثانى فهو دراسة أديب ، وهذا الأديب هو (أبو حيان التوحيدى للدكتور أحمد محمد الحوفى) .

قدم المؤلف لهذا الكتاب بمقدمة بيّن فيها الدوافع التى دفعته إلى اختصاص أبى حيان التوحيدى بهذه الدراسة ، وأشار بصفة عامة إلى المنهج الذى سلكه فى دراسة أبى حيان .

وقد قسم الدراسة إلى عشرة فصول :

تناول فى الفصل الأول (أعاصير السياسة ، ماثلة فى ضعف الخلفاء ، وتفاقم الشعوبية ، وجرائر الجند الأتراك . وانقسام الدولة ، والاعتداء على الخلفاء ؛ وهجوم بنى بويه على بغداد . وساطة نساء القصر ، وفقدان المناصب الكبرى جلالها ، وصراع الدويلات ، والثورات الداخلية ، وسوء الحالة الاقتصادية ، وصراع أهل السنة والشيعة ، ومفاسد القرامطة ، وثورات العيارين ، وتشدد الحنابلة ، وهجمات الروم ، واتساع الدولة شرقاً .

وتناول فى الفصل الثانى (تيارات الثقافة) فبين استمرار النشاط العلمى والأدبى ، وضرب أمثلة من تشجيع الدويلات للعلم والأدب ،

وتكلم عن حركة الترجمة من اللغات الأجنبية ، واتصال أبى حيان بكثير من التراجمة ، وازدهار مراكز الثقافة والأدب ، وكثرة العلماء والأدباء ، ونضج العلوم ، وتطور النثر الفنى ، وظهور القصص والمقامات ، وكثرة المكتبات ، وفتور الشعوبية ، وظهور شخصية العواصم والمدن وتنافسها .

وعرض الفصل الثالث (معالم حياة أبى حيان) اسمه وكنيته ومولده ووفاته وأصله وحرفته .

واختص الفصل الرابع (ثقافة أبى حيان) بالدراسة ، فتكلم عن إحاطته بثقافة عصره ، وعن ينابيع ثقافته ، وعن أبرز ألوانها وهى الفلسفة والفقه والحديث واللغة والنحو وعلم الكلام والأدب .

وجاء الفصل الخامس مفصلا (لحياة أبى حيان فى قصور الوزراء) فتحدث عن صلته بابن العميد ، ودلل على أن المقصود هو أبو الفتح لا أبو الفضل على نقيض ما ذهب الدارسون ، ثم بيّن لماذا ساءت علاقة أبى حيان بابن العميد .

وتحدث عن صلة أبى حيان بابن عباد ، وعرّف بابن عباد ، وبيّن السبب فى سوء العلاقة بين ابن عباد وأبى حيان .

ثم عرض لصلته بابن سعدان ، وعرف بابن سعدان ، ووضح السبب فى علاقة أبى حيان بابن سعدان .

وأما الفصل السادس فهو (لرسم معالم شخصية أبى حيان) واضحة فى شغفه بالمعرفة . واعتداده بعلمه ، وطموحه إلى التقدير ، وسذاجته فى

معاملة الكبراء ، وصراحته ، وأمانته فى ذكر المحاسن والمساوى ، وحسن ظنه بالناس ، وتشبثه بالآمال ، وإلحاحه ، وبؤسه ، وشكواه وسخطه ، وتدينه ، وتصوفه ، وأمانته فى الرواية . وختم هذا الفصل بإحراق أبى حيان كتبه ، ورسالته التى حاول فيها أن يبرر هذا الإحراق ، وموازاته بينه وبين الذين أحرقوا كتبهم أو أغرقوها .

ثم جاء الفصل السابع (للتعريف بمؤلفاته) ، فذكر المؤلف أسماء المطبوع منها وأسماء المخطوط والمفقود ، وحلل من مؤلفات أبى حيان : المقابسات ، والهوامل والشوامل ، والإمتاع والمؤانسة ، والصداقة والصديق ، وأخلاق الوزيرين ، والبصائر والذخائر ، والمحاضرات ، وتقريظ الجاحظ ، ورسالة العلوم ، والزلفة ، والإشارات الإلهية .

وبعد هذا جاء الفصل الثامن (لبيان خصائصه الفكرية والفنية) والتقديم لهذه الدراسة بكلمة عامة عن طريقة كتاب القرن الرابع ، وامتياز أبى حيان عليهم ، وتوضيح سمات نثره من حيث استمداده من عاطفة ، وتسجيله ثقافة عصره ، وتزويد الأدب بالعلم ، وبراعته فى وصف الرجال وتحليل نفسياتهم ، ومقدرته على صياغة الأفكار والتعبير عن المشاعر ، واتخاذه النثر سلاحاً للهجاء وخبرته بما يتطلبه التعبير الفنى من براعة ودقة ، وجنوحه إلى الإطناب ، وإكثاره من الفصل بالجمل الاعتراضية ، وإكثاره من الجمل الدعائية ، وبراعته فى تنغيم الوقع الموسيقى للجمل ، وقلة سجعه ، وميله إلى التضاد وإلى الاستشهاد بالشعر

والحكم والأمثال .

وأما الفصل التاسع فهو (للموازنة بين أبي حيان وكتاب عصره) ، تناولت وجوه التشابه ووجوه التخالف .

وأما الفصل العاشر فهو (للموازنة بين أبي حيان والجاحظ) تناولت ما بينهما من تشابه ومن اختلاف .

النموذج الثالث

دراسة موضوع

أما النموذج الثالث فهو دراسة موضوع من إنتاج أديب ، وهذا الموضوع هو (وطنية شوقى للدكتور أحمد محمد الحوفى) .

تناول المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب البواعث التى دفعته إلى النهوض بهذه الدراسة ، وواجب الدارسين فى تجلية الدور الذى نهض به الأدب فى العصر الحديث فى مقاومة الاحتلال ، وفى الهتاف بالتحرر ، ثم بين المنهج الذى سلكه فى دراسته .

وقد قسم الدراسة ثلاثة أبواب :

أما الباب الأول فهو لبيان العوامل الفعالة فى وطنية شوقى ، وقد قسم الباب إلى عدة فصول ، وضح فيها فجر الوطنية ، وضحا الوطنية ، منذ رفاعة الطهطاوى إلى ثورة سنة ١٩١٩ ، وينابيع وطنية شوقى ممثلة فى تأثره بالأحداث السابقة ، وبمصريته وحبه لمصر ، وصلته بمصطفى كامل وبسعد زغلول وغيرهما ، ثم إشعال النفى لوطنيته .

وأما الباب الثانى فهو لفنون وطنيته ، بين فى الفصل الأول حبه لمصر ، ومظاهر هذا الحب ، وفى الفصل الثانى فخره بمصر ومظاهر هذا الفخر ، وفى الفصل الثالث مناهضته للاحتلال ، ومظاهر هذه

المناهضة ، وفى الفصل الرابع إشادته بالجهاد والأبطال ، وفى الفصل الخامس هتافه بالاستقلال التام ، وفى الفصل السادس هتافه بوحدة وادى النيل ، وفى الفصل السابع دعوتـه إلى الدستور ، وفى الفصل الثامن استنهاضه لعزائم المصريين ، وفى الفصل التاسع دعوته إلى النهوض بالعلم والتعليم ، وفى الفصل العاشر دعوته إلى العناية بالجيش ، وفى الفصل الحادى عشر سخطه على الانقسام وفرحه بالوئام ، وفى الفصل الثانى عشر حرصه على وحدة المسلمين والأقباط .

وأما الباب الثالث فهو للاسلامية والوطنية ، بين فيه النزعة الإسلامية التركية فى عصر شوقى ، ثم وضح هذه النزعة فى شعره ماثلة فى بواعث عاطفته الإسلامية التركية وفى مظاهرها وهدفها ، ووضح أن العاطفة الإسلامية والعاطفة التركية غير متعارضتين .

النموذج الرابع

النثر الفنى عربى النشأة

١

رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة ذاتية ، وإنما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان ، كالمسيو مرسيه ، فهو يرى أن أول كاتب فى اللغة العربية عبد الله بن المقفع الفارسى الأصل ، ويذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال ، ويعلل هذا بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية ، وهى لا تقتضى نثرا فنيا ، لأن النثر الفنى لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر ، لأنه لغة العاطفة والخيال .

وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى أن الشعر سبق النثر الفنى ، وفصل المقال فى هذا ، وعلله فى كتابه (حافظ وشوقى) وفى كتابه (من حديث الشعر والنثر) .

ويفهم من كلامه أن النثر الفنى ظهر فى أول القرن الثانى للهجرة ، لأنه القرن الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وشهد مظهر هذه الحياة وهو النثر الفنى ، ويقول إنه ربما كان من الحق أن أول من أحدث فى نفوسنا

لذة الكتابة الفنية فى العصر الإســلامى فى القرن الثانى للهجرة هـو عبد الحميد وابن المقفع .

٢

والحق أن النثر الفنى نشأ نشأة عربية خالصة كما أكد الدكتور طه حسين فى موضع آخر من كتابه (من حديث الشعر والنثر) فلم ينقله العرب عن اليونان أو الروم أو الفرس أو الهند كما نقلوا كثيرا من العلوم والمذاهب والآراء . لكن هذه الحقيقة – تحتاج إلى تدليل عليها وإثبات لصحتها ، فيجب أن نناقشها فى تؤدة وأناة .

ما من شك فى أن القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربى ، ولقد شَدَهَ العربَ بافتنانه ، فتطامنوا لبلاغته ، سواء فى ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن أصر على الكفر والعناد .

أما الذين أسلموا فقد آمنوا بأن القرآن الكريم منزل على النبى من عند الله ، وأما الذين لم يسلموا فقد أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، لكنه من صنع النبى ، وزعموا أنه أُوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بأنه ساحر وبأنه شاعر .

وإذ كان القرآن الكريم ذروة البيان العربى ، ونزل بلسان عربى مبين كما وصفه الله تعالى ، فإن من الطبيعى أن يكون العرب قبيل الإسلام قد مارسوا النثر الفنى ممارسة أعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن ، فإن الله تعالى

يقول : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» .

ثم إن الله تعالى تحداهم فى عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه وألفوه ما تحداهم هذا التحدى ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الإمهال ، «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

لكننا فى حاجة إلى نصوص أدبية نطمئن إليها فى معرفة العرب للنثر الفنى قبل الإسلام ، لأن الشك يخامر ما روى عنهم من خطب ووصايا ورسائل فى العصر الجاهلى ، وفقدان هذه النصوص التى تطمئن إليها ليس دليلا على جهالة العرب بالنثر الفنى .

٣

العرب قوم ذوو لسن وبلاغة ، يحبون البيان والطلاقة والتحبير والرشاقة ، ويأمرون بالتبين والتثبت والتحرر من زلل الكلام ومن زلل الرأى ، كما ذكر الجاحظ فى كتابه البيان والتبين .

ولقد وصفهم كتاب الله تعالى بذلك فقال : «ولتعرفنهم فى لحن القول» وقال : «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام» . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحا ثم قادحا فى الشخص نفسه ،ومعللا لمدحه

ولقدحه : إن من البيان لسحرا .

لهذا كانت معجزة النبي من جنس ما تميزوا به ، من بلاغة المنطق وروعة التعبير ، وساحر البيان .

٤

وكان لهم فى جاهليتهم أمثال كثيرة ، سلم بعضها من النسيان والإغفال ، وبقى إلى أن دون .

وربما كان أقدم مصدر لهذه الأمثال نعرفه اليوم كتاب الفاخر لأبى طالب المفضل بن سلمة المتوفى سنة ٢٩١ هـ .

ولسنا نرتاب فى نسبة هذه الأمثال إلى العصر الجاهلى ، كما نرتاب فى الخطب ، لأن فى طبيعة لغة الأمثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها وبقاؤها وتداولها ، والناس كلفون بترديدها والاستشهاد بها ، لأنها تمثل تجارب سابقيهم وأحكامهم وآراءهم ؛ ولأنها مرتبطة بأحداث سابقة كثيرا ما يشاهدون لها نظائر ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ويرددونه فى الحديث الحاضر .

ثم إنها تصور ألوانا من أخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة فى تصويرها حينما قيلت ، وما تزال صادقة فى تصويرها حينما يتمثل بها مرددها ، ولكن ما علاقة الأمثال بالنثر الفنى ؟

فى كثير من هذه الأمثال التى سجلها السابقون صفات ترتفع بها من

اللغة المألوفة فى الحياة المعتادة إلى لغة فيها براعة وافتنان ، فهى نثر فنى :

١ - فهى مرسلة فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، وفى بعضها عناية بالجرس والتوازن والإيقاع ، لهذا نجد فيها سجعا وتماثلا فى عدد الكلمات ، مثل : ادَّرعوا الليل ، فإنه أخفى للويل .

ومثل : اليوم خمر ، وغدا أمر

ومثل : رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يُدْعَى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا .

ومثل : إن البغاث بأرضنا يستنسر .

ومثل : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها .

ومثل : عند الصباح يحمد القوم السُّرى

٢ -وهى أحيانا تعتمد على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة ، مستمدة من البيئة ، لتوحي بالمعنى المراد فى ثوب من الخيال ، كقولهم فى وصف من ارتكب عملا قبيحا يستحيى منه ، ويريد أن يستخفى من الناس : جاء كخاصى العَيْر ، لأن خصاء العير عمل قبيح شاذ إن صح أن يحدث فإنه لا يقوم به إلا حقير .

وكقولهم فى وصف المغرور بما يتوهم فى نفسه من مواهب وميزات ، أو بما يمتلك من أشياء يظن أنه وحده المالك لها ، بغير أن يقيس ما عنده بما عند الناس : كل مُجْرٍ فى الخلا يُسَرّ ، لأن الذى يجرى فرسه وحيدا فى الخلاء ينخدع بسرعته ، ويفرح بعَدْوه ، لكنه إذا سابق به غيره تبين

له بطؤه وضعفه .

وكقولهم فيمن يتنصل من خلق فيه ، أو من وصف ثابت له ، فيدَّعى أنه طارئ عليه ، كأن يكون جبانا ، ويزعم أن لم يجبن إلا لمرض نزل به ، أو حقير النشأة فيدعى أن الدهر هو الذى أفقده مجده : قبل النفاس كنت مصفرة ، لأن المرأة التى كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة تزعم بعد الوضع أن نحولها وشحوبها أثر من آثار النفاس .

٣-ولقد يعتمد المثل على التشخيص ، فيضفى على غير العقلاء صفات العقلاء من شعور وإدراك وفهم وتعقل ورزانة -وتهور ، كقولهم فيمن يكتم السر: أكتم من الأرض ، كأن الأرض إنسان يفهم ويحرص ويدخر ويمنع ، ويفعل ذلك عن روية وتدبر .

وكقولهم فى وصف الأحمق :أحمق من رِجْلَة ، لأن الرجلة تنبت فى مجارى السيل فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأى وإرادة واختيار ، وهى التى اختارت لنفسها هذا المكان لتنبت فيه .

٥

ولقد احتفى العرب بالخطابة منذ الجاهلية ، وافتخروا ومدحوا بالبراعة فيها ، حتى كانت الخطابة والشعر متساويين فى القدر .

قال لبيد :

ومقام ضيق فَرَّجْتُهُ ببيان ولسان وجَدَلْ

وقال قيس بن عاصم المنقرى فى وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مصاقع لُسْنُ

ورثى أوس بن حَجَر فَضالةَ بن كلدة بأنه الخطيب الفذ فى مجمع القوم عند الملوك :

أم من يكون خطيب القوم إن حَفَلُوا عند الملوك أولى كيد وأقوال

وقال أبو قردودة الطائى فى رثاء ابن عمار الطائى إن قاتليه قد حرموا الناس كرمه العظيم ومنطقه الجميل الأخاذ الذى يشبه الثوب الموشى المزخرف باليمن :

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشى اليُمنة الحبرة

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لأن الكتابة كانت نادرة ، وإنما كانوا يفكرون فى مقالهم ، ويزينونه ثم يسترسلون .

ثم جاء الإسلام فازدادت الخطابة رفعة وكثرة .

ولا شك أن كثيرا من الخطب كان يعد فى الجاهلية وفى الإسلام إعدادا فيه تأنق وترتيب وتجويد ، سواء أكان مكتوباً أم غير مكتوب ، يدل على هذا فى الإسلام أن عمر بن الخطاب قال إنه كان فى يوم السقيفة قد أعد كلاماً ليقوله فى الاجتماع ، لكن أبا بكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئاً مما كان عمر يريد أن يقول ، وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر فأرتج عليه ، فقال إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام

مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله . .

وهذا النص صريح فى أن أبا بكر وعمر كانا يعدان خطبهما أو على الأقل بعض خطبهما ، وفى أن عثمان فوجئ وهو مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه ، لتجيء على النسق الذى يرضاه ويرتضون .

وروى أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبى حين ولوه رياستهم أن يخطب فيهم فقال : وما أنا والرأى الفطير والكلام القضيب أى المرتجل .

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراء فى خطبه ، ليخفى لثغته ، ومعنى هذا أنه كان يعد خطبه ويتمهل فى إعدادها . على أن طابع الإعداد والتأنق يتضح فى كثير من خطب العصر الأموى ،كخطبة زياد بالبصرة ، وخطبتى الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك ابن مروان بعد مقتل أخيه مصعب ، وخطبة أبى حمزة الشارى بالمدينة ، لأن هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، بارعة التعبير ، متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع ، معتمدة على ألوان من الخيال .

وإنه ليسترعى الانتباه أن بعض الخطب تبدأ بمقدمة وثيقة الصلة بالموضوع ، ثم يعقبها العرض ، وبه أحيانا تدليل وتفنيد ، ثم تنتهى

الخطبة بخاتمة جامعة للموضوع ، أو مثيرة للسامعين ؛ وهى بهذه المراحل قد استكملت أجزاء الخطبة كلها ، كما قسمها أرسطو وغيره من المحدثين .

واشتمال بعض الخطب فى صدر الإسلام وفى العصر الأموى على هذه الأجزاء ، واتصافها بما سبق ، يؤكد أنها نثر فنى رائع ، مارسه العرب منذ عصر قديم قبل أن ينقلوا من الفرس أو الروم أو الهنود شيئاً . وحسبى أن أذكر بعض فقرات من تلك الخطب .

١ – من خطبة زياد بالبصرة قوله : وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوما غرّقناه ، ومن حرّق على قوم حرّقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه :

٢– من خطبة الحجاج بالبصرة : «أيها الناس ، من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلىَّ أن أعجّله ، ومن ثقل عليه رأسه ، وضعتُ عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه . إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا ، فمن سقمت سريرته ؛ صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه»

٣– من خطبة عبد الملك بن مروان : «أيها الناس إن الحرب صعبة مرة ، وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبنّاها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهى أمنا .

٤– من خطبة للإمام على بالكوفة بعد أن بلغه قرار التحكيم : «إن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى . لو كان يطاع لقصير أمر . فأبيتم علىَّ إباء المخالفين الجفاة . والمنابذين العصاة . حتى ارتاب الناصح بنصحه . وضَنَّ الزند بقدحه» .

٥– من خطبة أبى حمزة بالمدينة دفاعا عن أصحابه : «شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا .

فكم من عين فى منقار طائر ، طالما بكى بها صاحبها فى جوف الليل من خوف الله . وكم من يد قد أبينت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق ، قد فلق بعمد الحديد» .

٦

أما الكتابة فإنها لم تكن فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى تنميق واحتفال خاص ، لأن الغاية منها مقصورة على تبليغ المعنى من أقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا فى بعضها التحبير والاحتفال ، كرسالته إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، ثم اتضح التنميق أكثر فى الرسائل الكثيرة المتبادلة بين على ومعاوية .

وآل الأمر إلى معاوية ، فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عربت دواوين الخراج فى عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يليها عرب خُلَّص ، أو مستعربون حذقوا العربية ، كسالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحيى .

وكان لهؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم فى النهوض بالكتابة الفنية ، لأنهم منقطعون لها ، ولأن بقاءهم فى الدواوين موصول بمهارتهم وتجويدهم .

على أن النثر الفنى لم يتمثل فى الرسائل الديوانية وحدها ، بل تعداها إلى ضرب آخر هو التأليف والتدوين .

ولقد كان كثير ممن يملون رسائلهم أو يكتبونها بأيديهم يتخيرون التعبير وينمقونه قبل عبد الحميد وقبل ابن المقفع ، ولهذا جاءت رسائلهم بليغة الصياغة طريفة الخيال ، كما نجد فى الرسائل المتبادلة بين على ومعاوية ، وبين معاوية وزياد ، وبين الحجاج وقطرى . ويدل على هذا أيضا أن معاوية أملى على كاتبه رسالة جاء فيها عن رجل : «لهو أهون علىَّ من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة» ثم قال للكاتب : امح من كلاب الحرة ، واكتب من الكلاب .

ولعله كره هذه السجعة ، لأن كلاب الحرة ليست أكثر هوانا عليه من غيرها ، فحرصه على ذكرها يدل على أنه يتكلف السجع ، ويخضع له المعنى ، وهذا ليس من البلاغة الفطرية في شيء . وهذه فقرات موجزة من بعض هذه الرسائل :

١– من معاوية إلى زياد : «أقسم قسما مبرورا ألا أوتين بك إلا في زَمَّارة تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك في السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه» .

٢– من زياد إلى معاوية : «وأما زعمك أنك تختطفني بأضعف ريش ، وتتناولني بأهون سعي ، فهل رأيت بازيا يفزعه صفير القنابر ؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف ؟» .

٣ – من الحجاج إلى قطري بن الفجاءة : «كنت أعرابيا بدويا تستطعم الكسرة ، وتخف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله ، فارجع عما أنت عليه بما زين لك» .

٤ – من نافع إلى خوارج البصرة : «ترون الظلم ليلا ونهارا ، وقد ندبكم الله إلى الجهاد ، ولم يجعل لكم في التخلف عذرا في حال ، فقال : انفروا خفافا وثقالا . فلا تغتروا ، ولا تطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرارة مكارة ، لذتها نافدة ، ونعمتها بائدة ، حفت بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرة ، وأضمرت عبرة» .

٧

على أننا نتعمق فى التدليل ، ونتبسط فى التوضيح ، فنعقد موازنة بين صفات النثر الفنى عند عبد الحميد وعند ابن المقفع وصفاته فى الرسائل التى كتبت فى عصر بنى أمية وبنى مروان قبل أن يخط عبد الحميد سطرا ، بل قبل أن يولد ، فماذا نجد ؟ .

نجد اتفاقا ونجد تشابها فى الجوهر ، ولا نجد اختلافا إلا فى الشكل والمظهر . وربما كان هذا الحكم فى حاجة إلى تفصيل ، فما تفصيله ؟ .

نلاحظ أن عبد الحميد كان يطيل آنا ويوجز آنا ، مراعيا ما يقتضيه المقام ، وما تتطلبه المناسبة ، لكنه لم يكن مبتدع هذا التنويع ، ففى الرسائل الأموية الطوال وفيها القصار مراعاة للمقام .

ونجد فى رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الأفكار ، وبتوليد المعانى ، أو توكيدها بالترادف ، وقد سبقه إلى هذا كثير ممن كتبوا رسائل فى العصر الأموى أو أملوا على غيرهم .

ولقد يسترعى انتباهنا فى نثر عبد الحميد أنه يجنح أحيانا إلى الخيال يزين به الأفكار ويوضحها ، ولكن هذا ليس بجديد ، لأن فى كثير من رسائل الأمويين ألوانا من الخيال لا تقل طرافة وجمالا عن أخيلة عبد الحميد ، إن لم تفقها بهاء وأصالة .

وإذا كان عبد الحميد قد اعتمد على التأنق والتحبير وتعمد

التجويد ، لأنه كاتب مختص بالكتابة ، فإن كثيرا من رسائل العصر الأموى أعدها كاتبوها أو مملوها وتأنقوا فيها ونمقوها .

ولست أنسى أن عبد الحميد كان يفصل جمله ويقطعها متساوية الطول ومتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع الذى لا استكراه فيه ، وأنه كان يرتب أفكاره فى كثير مما يكتب ، لكنى أذكر أن هذه الصفات كلها فى كثير من رسائل العصر الأموى .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، مثل تأنقه فى البدء والختام ، وتنويعهما بحسب المقام ، وإطالة فى البدء بنوع خاص بعبارات التحميد والثناء ، ولكن نفرده بهذا لا ينهض دليلاً على أنه أول من كتب فى العربية نثراً فنيا ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفى عن العرب معرفتهم للنثر الفنى قبل عبد الحميد ، لأن الحكم يلزم أن ينصب على الأصل والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر ، ولأن النثر الفنى ما كان ليفقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التأنق والإطناب فى مطالع الرسائل وفى خواتمها ، وإنما كان يفقد خواصه الأصيلة لو أنه جاء خلواً من التجويد والتنميق وتوخى الجمال والتأثير .

٨

إذنْ فقد كان النثر الفنى معروفاً للعرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ، وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد وابن المقفع :

وجعل هذا النثر الفنى يتطور ويترقى على ألسنة العرب الذين أملوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة الأموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف النضج ، ثم كان عبد الحميد أول كاتب فى الديوان اشتهر بكتابته وذاع صيته ، وظهرت فى آثار قلمه خواص من سبقوه ، ومظاهر ابتكرها ونسبت إليه ، فصار من الحق أن لعبد الحميد ولابن المقفع نثراً فنيا يحدث فى نفوسنا لذة ، ونجد فى قراءته متعة .

ومعنى هذا أن النثر الفنى فى أدبنا العربى لم يكن يونانى النشأة ، ولا فارسى المولد ، وإنما نشأ عربيا خالص العروبة ، كما نشأ الشعر ، وكما نشأت الخطابة والحوار والأمثال .

أما الطابع الفارسى واليونانى فقد تبين فى النثر الفنى واضحاً بعد ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب أولئك وعلوم هؤلاء ، ولهذا كانت معالمه فى نثر ابن المقفع ومن جاءوا بعده أوضح منها فى نثر عبد الحميد ومعاصريه .

٩

وهذه فقرات من بعض رسائل لعبد الحميد فى موضوعات متنوعة :

١- كتب إلى أهله وهو منهزم مع الخليفة مروان بن محمد :

«أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ،

وشكاها مستزيداً لها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها ، ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة ، والطير بارحة » .

٢ – وكتب يعيب المولعين بلعبة الشطرنج :

« وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ممن قِبَلَكَ من أهل الإسلام قد ألهجهم الشيطان بها ، وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم إلى ممساهم ، ملهية لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، وافترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها » .

٣ – قال له مروان بن محمد وقد أهدى إليه بعض العمال عبداً أسود فاستقله : اكتب إلى هذا العامل كتاباً مختصراً ، وذمه على ما فعل ، فكتب إليه : « لو وجدت لوناً شراً من السواد ، وعدداً أقل من الواحد لأهديته ، والسلام » .

٤ – كتب إلى رئيس يوصى بشخص : « حق موصِّل كتابى إليك كحقه علىّ ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدِّق أمله » .

٥ – من تحميده فى أول الرسائل قوله : « الحمد لله الناصر لدينه وأوليائه وخلفائه ، المظهر للحق وأهله ، والمذل لأعدائه أهل البدعة والضلالة ، الذى لم يجمع بين حق وباطل ، وأهل طاعة ومعصية ، إلا

جعل النصر والعاقبة لأهل حقه وطاعته ، وجعل الخزى والذلة والصغار على أهل الباطل والخلاف والمعصية ، حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب به لأمير المؤمنين وأهل طاعته الزيادة التى وعد من شكره».

٦ — من وصيته للكتاب : «ليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليماً فى موضع الحلم ، فهيماً فى موضع الحكم ، مقداماً فى موضع الإقدام ، محجاماً فى موضع الإحجام ، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما للأسرار ، وفياً عند الشدائد .

فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب .

الكتاب القادم :

الكتاب والمكتبة والقارئ   حسن رشـــاد

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٥٥٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٨ – ٤

٩٠/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)